# " إعادة الفاعلية للفكرة الإسلامية شرط أساسي لحل المشكلة الإسلامية "

د/ عبد القادر بوعزة (جامعة وهران)

لا أعتقد أن مالك بن نبي، حين يمسك القلم ويبدأ في الكتابة عن أي مشكلة من مشكلات الحضارة،كان ينظر إلى الوقائع والأحداث المتراكمة في العالم الإسلامي « على أنّها سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها »1. بل أعتقد أنه كان، وهو يتناولها ينظر إليها على أنها ظاهرة ساهمت في إيجادها عوامل نفسية اجتماعية. وكما أن هذه العوامل تساهم في تكوين الظاهرة الحضارية بتركيب عناصرها، فإنها تساهم إذا ما اجتازت الظاهرة الحضارية مرحلة الروح ودخلت في مرحلتي: العقل والغريزة، أقول تساهم في اندثار الظاهرة الحضارية بفك ربط عناصرها.2

كما لم يكن مالك بن نبي مؤرخا حين اتخذ من واقعة صفّين سنة 38 هـ وقيتا لبداية الأفول الحضاري في العالم الإسلامي، ومؤشرا على التقهقر والانحطاط، بقدر ما كان عالم اجتماع وعالم نفس، يرصد الأحداث والوقائع في ماضيها وفي راهنها، يدرسها ويحللها بالنظر إلى عواملها النفسية الاجتماعية.3

واستيعاب مالك بن نبي لآراء أكبر المؤرخين والمفكرين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس4، المتعلقة بالبناء أو الهدم الحضاري، مكّنه من فهم الظاهرة الحضارية التي كرس حياته لدراسة وتحليل مشكلاتها واقتراح حلول جذرية لها5.

ويتجلى فهم مالك بن نبي للظاهرة الحضارية في الدرس الواسع والتحليل العميق والإستنتاج أو الإستنباط الصحيح، إذ لم يفته وهو يدرس مشكلات حاضر العالم الإسلامي أن يعتبرها سلسلة من النتائج المتراكمة: يعود زمن مقدمتها إلى واقعة صفيّن6

فما تمخض عنها كان بمثابة نقطة الانحراف عن الصراط الذي حدّدته الفكرة الإسلامية للسير عليه، وكان إيذانا بانتهاء المرحلة الروحية -التي عايش الإنسان المسلم أحداثها الجسيمة أثناء نزول القرآن وأثناء الخلفاء الراشدين- وبداية المرحلة العقلية ثم المرحلة الغريزية للحضارة.7

وأخطر ما ترتب على واقعة صفين، وكان له تأثير سيء على عالم الأشخاص في العصرين: الأموي والعباسي، هو الفصل بين السلطة الروحية، وبين السلطة الزمنية8.إذ كان الإنسان المسلم قبل هذه الواقعة محكوما بهذا المبدأ القرآني9:﴿ قل إنّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾، فكان نظام أفعاله المنعكسة في أقصى فاعليته الاجتماعية، وكانت طاقته الحيوية في أتم حالات تنظيمها.10

لذلك فلم تكن شبكة العلاقات الاجتماعية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عهد خلفائه الراشدين إلا في أكثف حالاتها، أما بعد هذه الواقعة، « فلم يعد الفرد المسلم يتصرف في كل طاقاته الحيوية وهو يباشر وظيفته الاجتماعية، أعني إنّ جانبا من غرائزه لم يعد تحت رقابة نظام أفعاله المنعكسة »10.

والفرد بحكم قانون الزوجية، يعدّ النواة التي تتكون منها جميع النواة التي تُنسج منها شبكة العلاقات الاجتماعية على منوال الفكرة التي وضعته على طريق الحضارة، والإنسان المسلم الذي يتحدث عنه مالك بن نبي هو هذا الفرد، فإذا أصبح الإنسان المسلم وهو يباشر وظيفته الإجتماعية لا يخضع لرقابة نظام الفكرة الإسلامية،فإنه ليس على طريق الحضارة وإن توهّم ذلك.11

وعقيل أخو علي كرم الله وجهه، حين سُئِل عن تذبذبه بين علي ومعاوية أجاب بما يمليه عليه الواقع فقال: « صلاتي خلف الإمام أقوم وطعامي عند معاوية أدسم »12. وهو بهذه الإجابة يعبّر عن عرض من الأعراض التي أخذت تظهر من جرّاء فصل الديني عن الدنيوي بعد واقعة صفّين.13

فهذه الواقعة لم تغير اتجاه شخص فحسب، بل غيرت اتجاه العالم الإسلامي كلِّه، بعد أن فقد ذلك التوازن الذي كان يعرفه قبلها، بين الجانب الروحي وبين الجانب المادي في حياة أفراده وجماعاته. وهو وإن كان قد واصل بعد هذه الواقعة حركته14 وإنتاجه للعلوم المختلفة وللفلسفة وللأدب والتوسع في العمران فإنه «لم يقو على [ذلك] إبّان تلك الأزمة الأولى في تاريخه وبعدها إلاّ بفضل ما تبقى فيه من دفعة قرآنية حيّة قوية، وكان سرّ تماسكه رجال من أمثال عقبة بن نافع وعمر بن عبد العزيز والإمام مالك رضي الله عنهم أجمعين، لا لأن أولهم كان فاتحا كبيرا والثاني خليفة عظيما والثالث إمام مدرسة كبرى في التشريع، بل لأن فضائل الإسلام الفطرية العظيمة قد تجسّدت فيهم بصورة أو بأخرى »15.

وإذا كنّا نقرأ في كتب التاريخ أنّ العالم العربي والإسلامي بعد هذه الواقعة، قد أنشأ حضارة، وقدم للإنسانية إبان عصور ازدهاره منتجات هذه الحضارة، والتي تجلت فيما أبدعه أولئك العظماء الذين كرسوا حياتهم لخدمة العلم والفلسفة والفقه والأدب والفنون، فإن تلك « الحضارة ليست من الناحية العضوية التاريخية التي تهمنا سوى صورة مشوّهة عن البناء الأصلي الذي شاده القرآن،والذي قام على أساس من التوازن بين العقل والروح... [الأساس] المزدوج... اللازم لكل بناء اجتماعي أهل للخلود]16. والمتأمل في أحداث المجتمع الإسلامي قبل وبعد واقعة صفين، يدرك أن ما قام به معاوية ثم من جاء بعده من الخلفاء الأمويين، من فصل بين السلطتين: الروحية والزمنية-، هو السبب الجوهري الذي حال بين الأجنة الخلقية، وبين مواصلة نموها في الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي، إذ لولا ذلك، لظلّت أجنة الفكرة الإسلامية في نمو مستمر، ولعمت الخيرية التي خص الله بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم المساحة التي غمرها نور الإسلام17.

بيد أنّ ما قام به خلفاء بني أمية –باستثناء عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه – من انقلاب على مبادئ وقواعد الفكرة الإسلامية التي هي الأصل في نشأة الحضارة،جعل الوحدة الروحية (الإيديولوجية) التي عاشتها الأمة الإسلامية في

عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين تتعرض للتصدع والانشقاق18، حيث تفرّق المسلمون إلى شيع وأحزاب وحركات متنازعة متحاربة، إلى أن أتى عليهم حين من الدهر لم يكونوا فيه قادرين -شعوبا ودولا- على مواصلة الحركة الحضارية19، ومن هنا [يجب] أن ندرك سر القيمة التي خص بها (عالم الاجتماع) محمد صلى الله عليه وسلم، الفضائل الخلقية باعتبارها قوة جوهرية في تكوين الحضارات... [فإذا تنكّر الفرد والمجتمع للفضائل الخلقية] إنهار البناء الاجتماعي، إذ هو لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح، والروح وحده هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطّت... وعندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة، أي عندما تكفّ الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه، تكون نهاية (دورة) وهجرة (حضارة) إلى بقعة أخرى »20.

ولقد هاجرت الحضارة للأسباب الآنفة الذكر البقعة التي تسمّى الآن العالم الإسلامي واستقرّت في الغرب وانتشرت في البقاع التي عرف أهلها كيف يتتلمذون عليه وكيف يحتذون نموذجه كاليابان والصين21، ولكن العالم الإسلامي منذ أن استعمر من قبل الغرب، وهو يحاول جاهدا بدفع من رجال الإصلاح الديني ورجال التحديث السياسي والاجتماعي إصلاح أوضاعه الأدبية والمادية باقتباسه حلولا لمأساته الإسلامية المزمنة، من ما ضيعه أو من الغرب دون تكييفها مع نفسيته ومع مرحلة تطوّره، أي دون مراعاة شروط تطبيقها، فلم يوفّق في كل محاولاته الإصلاحية إلى إحداث تركيب أصيل لعناصر الحضارة22.

إنّ هذا الكلام لا ينبغي أن يؤو"ل على أنه تثبيط للعزائم، ولا على أنه إنكار للجهود المبذولة منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا إنما هو الحقيقة.

تلك الحقيقة التي لا يمكن أن ندركها في أوضاع العالم الإسلامي، ما لم نضع نصب أعيننا نتائج نهضة عمرها الآن على مشارف مائة وستين سنة، ونجد نهضة اليابان أو ألمانيا أو الصين أو حتى نتائج نهضة إيطاليا وكوريا الشمالية وآسيا التي لم يتجاوز عمرها أربعين سنة23. إن هذه النظرة إلى النتائج المحققة في العالم الإسلامي وفي البلدان المذكورة على سبيل المقارنة، هي التي تجعلنا ندرك هذه الحقيقة، وهي أن جميع محاولات الإصلاح، بالنظر إلى ما انفق فيها من وقت، وما بذل فيها من جهد وما استهلك فيها من وسائل،لم تفض إلى إحداث تركيب أصيل لعناصر الثقافة وبالتالي لعناصر الحضارة24 وإدراك هذه الحقيقة، لا شك أنّه يوصلنا إلى جوهر المشكلة الحضارية في العالم الإسلامي، أي أنه يجعلنا نتساءل لماذا أخفقت نهضتنا ونجحت نهضة البلدان التي ذكرناها؟! والجواب هو لأن الإنسان في هذه البلدان عمد منذ بداية نهضته إلى وضع جميع مشكلاته ضمن حدود مفهوم حضارة وعلى مستوى أسسها وإرادتها وقدرتها أو ضمن العناصر التي يتطلبها الإقلاع الحضاري وهي الإنسان والتراب والوقت25، بينما الإنسان في البلاد العربية والإسلامية لم يضع مشكلاته ضمن حدود مفهوم حضارة وعلى مستوى أسسها وإرادتها وقدرتها أو ضمن ما يقتضيه الإقلاع الحضاري من رأس مال أوّلي، وإنما وضعها على مستوى منتجات حضارة26. هذا هو جوهر المشكلة الحضارية في العالم الإسلامي، فليست منتجات حضارة هي التي تُنشأ حضارة في الوسط الذي يعتمد عليها في ذلك، وإنّما عملية إنشاء حضارة هي التي تمكن الإنسان بمرور الوقت من صنع هذه المنتجات.

وإدراك الإنسان في البلدان التي ذكرناها على سبيل المقارنة للقاعدة الجوهرية في البناء الحضاري، هو الذي مكّنه من تحقيق الشروط المعنوية والمادية الكفيلة بإحداث نهضة شاملة في بلدانه، فإذا نظرنا إلى العالم الإسلامي وجدناه، منذ أن تحرّر من الاستعمار وهو يحاول إصلاح أوضاعه السياسية والاقتصادية فلم يحالفه فيها التوفيق27، فهل هناك من تفسير لهذه الإخفاقات المتتالية، سوى أن نعتبرها ترجمة عملية لعدم إدراك الإنسان المسلم في بلداننا لهذه القاعدة في الميدانين: السياسي والاقتصادي، باعتبار القرارات المصيرية مرتبطة من حيث اتخاذها وتنفيذها بهذا الإدراك الذي يتجلّى في هذين الميدانيين العمليين28.

وإذا كانت السياسة في أبسط تعريفاتها: هي فن التخطيط للممكن بالوسائل التي تحت تصرفنا، كي يسهل تنفيذ كل الأفكار الناتجة عن التخطيط، فإنّ أول وسيلة، ينبغي الالتفات إليها، ونحن نحاول تجسيد أفكارنا، هي الإنسان، وليس ما يستعمله من أدوات29. لأن فاعليتها في عمليات التنمية المعنوية والمادية مرهونة بهذا الإنسان، الذي خرج من الحضارة ولم يعرف بعد كيف يعود إليها، ولكن ليس من حيث كفاءته الفنية فحسب30، بل من حيث وعيُه بقيمته في هذه العمليات وقيمة وسائله الأوّلية، ومن حيث إرادته في استخدامها استخداما فعّالا31، لأنّ خلاص العالمين: العربي، الإسلامي من هيمنة الغرب على مقدراته الإنتاجية مرتبط بهذا الوعي وهذه الإرادة، إذ من شأن الوعي والإرادة خاصة في هذا الظرف، الذي أصبح الإنسان المسلم يحس فيه بشدة وطأة نتائج إخفاقات تجاربه المتتالية31، أن يهدياه إلى إدراك هذه الحقيقة وهي أنه طبقا للمقياس العام الذي يحكم عملية البناء الحضاري ( ليس من الواجب لكي ننشأ حضارة أن نشتري كل منتجات " حضارة أخرى "، فإن هذا يعكس القضية... وهو يقود في نهاية الأمر إلى عملية مستحيلة كما وكيفا، فمن ناحية الكيف: تنتج الاستحالة من أن أي حضارة لا يمكن أن تبيع جملة واحدة الأشياء التي تنتجها..." كما " لا يمكن " وهذا المهم " أن تبيعنا روحها وأفكارها وثرواتها الذاتية وأذواقها... ومن ناحية الكمّ: لن تكون الاستحالة أقلّ، فليس من الممكن أن نتخيّل العديد الهائل من الأشياء التي نشتريها ولا أن نجد رأس المال الذي ندفعه فيها "32).

وحين يبدأ الإنسان المسلم يفكّر بعقله وليس بعاداته الفكرية33 في: كيف ينشئ حضارة انطلاقا من عناصرها الأساسية، حينئذ سيصل إلى الإجراءات العملية التي تجنّبه التّيه في السبيل والإسراف في الجهد والتبذير في الوسائل، وتمكّنه تدريجيا وفي أوجز مدة من الوصول إلى حلول لمشكلاته الحضارية: المعنوية والمادية. 34

ولعلّ إجراء سيهتدي إليه بعد إحصاء الإجراءات وترتيبها حسب أهميتها هو إجراء كيفية تركيب عناصر الثقافة ليسهل عليه تنفيذ إجراء كيفية تركيب عناصر الحضارة طبقا للمقياس العام الذي يحكم هذه العملية.

ولئن كانت عملية إعادة تركيب عناصر كلّ من الثقافة والحضارة تتطلب تدخل العامل الديني35 فليس من الرّشد أن يتجاهل الإنسان في العالم العربي والإسلامي دور الفكرة الإسلامية في هذه العملية، فهي التي غيّرت في فجر تاريخ الأمة الإسلامية، الإنسان البدوي في إرادته واتجاهه، ومزجت بينه وبين التراب والوقت وأنتجت تركيبا أصيلا هو الحضارة الإسلامية.36

وتأكيد مالك بن نبي على ضرورة تدخل العامل الديني وعلى أهميته في عملية إعادة تركيب عناصر الثقافة والحضارة في البلاد العربية والإسلامية ليست مصادره رؤى كبار المؤرّخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع، وإن كانت تتّفق على أن العناصر الإسلامية للحضارة الإسلامية والمسيحية تركبت في مهد فكرة دينية،37 وإنّما هو نابع من اقتناعه بأن " قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين، وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين حسب العبارة الشائعة مؤثر صالح في كل زمان ومكان"38.

وتاريخ الأمة الإسلامية من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الآن يؤيّد اقتناع مالك بن نبي فقد كان الدين الإسلامي العامل الوحيد الذي أخرج القبائل العربية من عهد الجمود والفوضى إلى عهد النظام والحركة، والعامل الأساسي في استنفار أفراد وجماعات الأمة الإسلامية، وفي تعبئة طاقاتها وقدراتها، وفي توحيد صفوفها وتحريكها لمواجهة القبائل التي امتنعت عن أداء الزكاة لبيت مال المسلمين في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه39، ولصدّ غزو التتار والمغول للعالم الإسلامي في العصر العباسي، وللوقوف في وجه الحملة الصليبية التي دعا إليها وقادها ملك انجلترا لتحرير بيت المقدس في العصر الأيوبي ولتحرير مشرق ومغرب العالم الإسلامي من الإستدمار الصليبي الحديث.40

ولكن هذا النصر الذي أحرزته شعوب العالم العربي والإسلامي على قوى الإستدمار الغربي على جبهات القتال، لم يكن ليتم دون أن يكون قادة العالم الغربي قد درسوا النفسية الإسلامية ودرسوا دينها وثقافتها فعرفوا أن دينها هو مر انتصاراتها عليهم41 فاتخذوا من هذه المعلومات التي أمدتهم بها دوائر مختبراتهم السياسية، سلاحا42، بعد أن أكد لهم المتخصّصون في الصراع الفكري في البلاد المستعمرة؛ أنّ سلاح الأفكار بالنسبة لشعوب العالم الإسلامي هو أضمن سلاح للإبقاء عليها تابعة للعالم الغربي سياسيا واقتصاديا43، بشرط أن يمكّن قادة الغرب العلمانيين في العالم الإسلامي من قيادته بإحدى نظم هاتين الأيديولوجيتين: الليبرالية أو الإشتراكية للإستعداد الذي يوجد فيهم وجنّدوا كلّ وسائلهم لتحكم البلاد المستقلة من قبل هاته الطائفة بالنّظام الليبرالي والإشتراكي44، حتى لا تكون هناك أيّ فرصة للتعاون السياسي والتكامل الإقتصادي بين هذه البلاد، ناهيك عمّا يحدثه ذاك النظام أو ذاك من اختلاف أو انقسام فيها45.

وقد كان المتخصّصون في الصراع الفكري يعلمون أنّ مفعول هاتين الأيديولوجيتين بالنسبة للأمة الإسلامية كمفعول دواء – انتهت مدة صلاحيته- أو بالأحرى لا يناسب فصيلة دم الشخص الذي سيتناوله، فهو في كلتا الحالتين سيضرّه إن لم يفتك به46. وقد كان الأمر كذلك إذ لم يستطع النظام الليبرالي أو الاشتراكي أن يمدّ الشعوب العربية والإسلامية وهي تخوض معركة البناء والتشييد بالطاقة الروحية47 التي تجعلها تبذل أقصى الجهد وتتحمل أعباء هذه المعركة للتحرّر من التبعية المعنوية والمادية للغرب الاستعماري، كما كان الإسلام يمدّها بذلك في معركة التحرّر والاستقلال48. بل إنّ تبني العلمانيين في البلدان العربية والإسلامية لنظام هاتين الأيديولوجيتين ساهم إلى حدّ كبير في بطء سير حركة النهضة الاجتماعية والاقتصادية وفي زيغها عن السبيل الذي سلكته إلى التحرّر والاستقلال49.

وليس هناك في هذا المجال من معيار نعرف بواسطته صلاحية فكرة أيّ مشروع أو عدم صلاحيتها للنهوض بعالمنا الإسلامي، سوى معيار الحياة العملية، ولمّا كان المشروع العلماني بشقّيه الاشتراكي والليبرالي هو المشروع الوحيد الذي ظلّ مهيمنا على كافة مجالات الحياة في البلاد العربية والإسلامية طيلة ستة عقود، فإنّه من حقّ المهتمّ أن يتساءل ما ذا حقّق هذا المشروع من إنجازات؟!50، فهل تمكّن بعد أن عزل الدين عن الحياة من تكتيل الطاقات والجهود والإمكانات المتوافرة في البلدان العربية والإسلامية أم أنّه ساهم في تشتيتها؟ وهل استطاع أن يحدث نهضة أدبية ومادية، ويعيد تركيب عناصر الحضارة طبقا للنموذج الغربي؟ أم أنّه أحدث نكسة أدبية ومادية؟، وبالتالي، فهل استطاع المشروع العلماني أن يحرّر البلدان العربية والإسلامية من التبعية المعنوية والمادية للعالم الغربي؟ أم أنّه ورّطها أكثر من ذي قبل؟!51

إنّ رهن البلدان العربية والإسلامية حتى تلك التي تبدو قويّة52، يجيب على هذه الأسئلة وإجابته هي أنّه ليست أمام العالم الإسلامي من فكرة تبعث فيه (الإرادة الحضارية) وتكتّل نشاط أفراده وتمكنّه من بعث ثقافة صالحة لتركيب عناصر الحضارة تركيبا أصيلا تتحقق معه تدريجيا كافة الشروط المعنوية والمادة، التي تجعله قادرا على معالجة سائر مشكلاته الحضارية، والتحرّر من التبعية للبلدان الغربية خاصة ذات النزعة الاحتوائية، سوى الفكرة الإسلامية، بشرط أن تعقد الدول العربية والإسلامية العزم على إعادة الفاعلية لكافة أجنّتها: العقدية والخلقية والتشريعية في حياتها الإجتماعية53.

وما يرمي إليه مالك بن نبي من ضرورة إعادة الفاعلية للفكرة الإسلامية54، ومن تكييف المعادلة الاجتماعية للإنسان المسلم55 باعتبارهما شرطان أساسيان للنهضة الحضارية الفعلية، لا يمكن حصره في الإصلاح السياسي والاقتصادي، بل يتعدّاه إلى التغيير الثقافي الجذري، ذلك التغيير الذي يطال الإنسان في تفكيره وفي عمله وفي أهدافه، وعيا وإرادة ووجهة، والاقتصار على إصلاح سياسي واقتصادي لا يكفل الشروط الضرورية لتحقيق هذه الأهداف اللازمة لكل بناء حضاري يبدأ من الأساس.

وعندما نبدأ من الأساس كما بدأ من بعثه الله رحمة للعالمين؛ فإنّ الفكرة التي توقظ الإنسان المسلم وتدفع به إلى المشاركة في العمل النهضوي بعزم وثبات وتسعف الداعين إليه والقائمين عليه والمتابعين والمنفّذين له، وتمكّنهم من تجميع الطاقات ومن توحيد الجهود ومن حشد الإمكانات وبالتالي من إنجاز مفردات النهضة في سائر ميادين الحياة؛ هي نفس الفكرة التي بدأ نورها يشعّ على العالم بكلمة " إقرأ " وأحدثت فيه ما تقصّه كتب السيرة والتاريخ56.

فإذا كان هذا الذي تقصّه علينا هذه الكتب صحيحا، فإنّ الفكرة الإسلامية هي التي أحدثت ذلك وغيّرت ملامح الحياة في الجزيرة العربية وفي الأنصار التي وصل إليها نورها.57 وهي قادرة على تكرار نفس المعجزة إذا ما أعيد تسجيلها في نفوس المؤمنين بها58. ففاعلية وظيفتها الاجتماعية بوجه عام تبدأ مع هذا التسجيل، إذ هي بتغييرها لما بنفس المسلم من وهن وغثائية؛ ينطلق التغيير الفعلي في المنظر الإنساني وفي النموذج الاجتماعي، من خلال التغيير الذي يحدثه الإنسان المسلم في الأنظمة السياسية والقانونية الحالية التي تحكم حركته في ميادين الحياة المختلفة بما يتلاءم مع فكرته الإسلامية59، وبذلك يكون الإنسان المسلم قد جدّد صلته بخالقه، كما يكون في الوقت نفسه قد أنشأ قاعدة روحية للعلاقات الاجتماعية التي يمارس بواسطتها نشاطه الدنيوي الأخروي60 لأن " العلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان... [وبقدر ما] تقوى العلاقة الدينية... [في هذه المرحلة] فإن درجة الفراغ الاجتماعي تقل [في المجتمعات العربية والإسلامية]، قلة تصبح معها صورة... [كيانات العالم الإسلامي] كالبنيان يشدّ بعضه بعضا..."61.

وبتجديد الصلة بالله، وبما ينشأ عنها من علاقات روحية اجتماعية، تستطيع الأمة الإسلامية أن تؤلف بين الأشخاص الطبيعية والاعتبارية62 وأن تتغلب على كل العوامل النفسية والفكرية التي ساهمت وتساهم في إضعاف طاقاتها وقدراتها وإمكاناتها وفي إطالة مرحلة وهنها وغُثائيتها63، إذ ليس من المعقول أن تظل الشعوب العربية والإسلامية –بعد أن أخرجت أخبث استعمار عرفته البشرية من أرضها- في حالة ضعف وذلة لو أن رجال النهضة الدينية عرفوا كيف يجددون صلة الإنسان المسلم بفكرته الدينية64، تجديدا يحيى الضمير أولا ويجعل من قيمها ومبادئها العَقَدية والخلقية والتشريعية سلطانا على ما يعتمل فيه ثانيا وعلى ما يصدر عن عالم الأشخاص في كافة مرافق الحياة من أقوال وأفعال ثالثا، لو أنهم فعلوا ذلك لكانت الشعوب العربية الإسلامية قد استقامت وأقبلت على ربّها65.

والدارس المتأمل في واقع الشعوب العربية والإسلامية وفي جهود الحركات الإصلاحية التي توالت عليه منذ فجر النهضة الإسلامية، سيلاحظ أن الخطاب الديني أثناء الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي، استطاع أن يوقظ النفوس ويحيي الضمائر ويقوّي العزائم ويدفع بأصحابها إلى خوض معركة الشرف والحرية ببطولة واستبسال66، ولكنه بعد الاستقلال لم يتمكن من أن يبقي الشعوب العربية والإسلامية على ذلك التوتر الذي كان لها من قبل، كي تواصل به وبنفس القوة والحرارة معركة البناء والتشييد، بل إنه لم يستطع أن يواصل عملية تطهير النفوس والضمائر والعقول من سائر عوامل الانتكاسة والارتداد!67

وبغض النظر عما أعدّه الاستعمار الغربي قبل خروجه من العالم الإسلامي وبعد ذلك من خطط لإبقاء الشعوب العربية والإسلامية تابعة له وتحت سيطرته بالأنظمة التي أعدها وهيأ لها قيادة تنفيذها، فإن سبب انتكاسة الخطاب الديني وعدم قدرته على مواصلة تأثيره بنفس الوتيرة في الشعوب العربية والإسلامية تعود إلى رجاله، إذ لم يسلكوا فيه -كما سلك من قبل القرآن- منهج التدرج والمداومة68، إما لأنّ ثقافتهم الدعوية لم تكن تؤهلهم لمواصلة هذا الخطاب - خاصة بعد أن هيمن العلمانيون على الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية- بأساليب تربوية اجتماعية تتلاءم مع الأوضاع الجديدة69. وإما لأنهم آثروا مهادنة الأنظمة بعد أن عاينوا أو عايشوا ما وقع لحركة الإخوان المسلمين في مصر على عهد الرئيس جمال عبد الناصر أو في سوريا على عهد الرئيس حافظ الأسد أو بالجزائر فيما بعد 1992.**70**

وعلى أية حال فإن نكسة الخطاب الديني تعد خطأ منهجيا وقعت فيه جميع الحركات الإسلامية على امتداد ستة عقود، ولم تسلم منه سوى حركة الإخوان المسلمين التي عرف مرشدها الروحي الإمام حسن البنا كيف يدعو إلى الإحياء الإيماني وإلى تجديد صلة الإنسان المسلم بخالقه.71

ومن الثابت تاريخيا أنه لم يكن للمرشد حسن البنا في دعوته إلى إحياء الإيمان وتجديد الصلة بالخالق، من الوسائل التي يستعين بها على ذلك "سوى الآية القرآنية، ولكنه كان يستخدمها في الظروف النفسية، عينها التي كان يستخدمها فيها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده..."72 وذلك لأن الآية القرآنية التي تعتبر أداة أو قاسما مشتركا بين جميع المصلحين في الوعظ والإرشاد لم تكن في منهجه الإصلاحي"... وسيلة منطقية تساق لغرض تعليمي... لا تمس مجال حياة [ الإنسان المسلم ] وجوانب فكره ومناحي سلوكه... [ وإنما كانت ] وسيلة فنية لتغيير الإنسان "73 والدفع به لأن يسلك السبيل الذي تدعوه إليه.

وإذا كان قد " اعترف كثيرُ من المثقفين الذين كان من حظّهم الاتصال [بالإمام] بأن للرجل قوة خارقة، إذ يجعل من آية القرآن أمرا حيا يملي على الفرد سلوكا جديدا ويجذبه جذبا إلى حياة العمل والنشاط "74؛ فإن هذه القوة الخارقة تعود إلى الناحية المنهجية التي كان يسلكها في إلقاء موضوع الخطبة أو الموعظة أو الدرس، إذ كان يعرف كيف يطابق بين المقال والحال أو بالأحرى أنه كان يعرف الفنيات التي تمكنه من توظيف الآيات القرآنية توظيفا فعالا في المقام الذي تُعرض فيه.75

هذا إلى جانب أن الإمام قد أوتي فصاحة اللسان وبلاغة التعبير. ومن وُهب منهجا وفصاحة وبلاغة وكان صادقا مع الله فيما يدعو الناس إليه يستطيع أن يحدث في النفوس ذلك الأثر الذي أحدثه القرآن في العرب سواء فيمن آمن أو كفر76. بل يستطيع بما يتلوه من قرآن وما يذكره من حديث نبوي أن يعيد للفكرة الإسلامية فاعلية تأثيرها في النفوس، كما لو أن زمان

التذكير بها في المقام الذي يتحدث فيه عنها هو زمان نزوله على النبي صلّى الله عليه وسلّم أو هو زمان استمساك خلفائه الراشدين بها.77

هذا بالإضافة إلى أنه " إذا كان قد أتيح... [للإمام] أن يؤثر تأثيرا عميقا في سامعيه، فما ذلك إلا لأنه لم يكن يفسّر القرآن، بل كان يوحيه إلى الضمائر التي يزلزل كيانها، فالقرآن لم يكن على شفتيه وثيقة باردة أو قانونا محررا، بل كان يتفجر كلاما حيا، وضوءا آخذا يتنـزل من السماء فيضيء ويهدي، ومنبعا للطاقة يكهرب إرادة الجموع "78. ولا عجب مما قيل عن الإمام في مجال الدعوة إلى الله وإصلاح النفوس،لأنه وهو يحاول بالقرآن أو بما صحّ عن النبي صلّى الله عليه وسلّم من حديث، تجديد صلة الإنسان المسلم بخالقه " لم يكن... يتحدّث عن ذات الله كما صوّرها علم الكلام، أي عن ' الله ' العقلي، بل كان يتحدّث عن ' الله ' الفعال لما يريد، المتجلّي على عباده بالرحمة والقهر، تماما كما كان المسلمون الأوّلون يستشعرون حضوره فيما بينه، ونفحته المادية في بدر وحنين..."79. ولكن الذي أحدثه الإمام في شرائح المجتمع المصري بالفكرة الإسلامية من بعث لإرادتها الحضارية ومن تغيير لاتّجاهها ومن استنفار لقواها لإنجاز ما وضع لها من خطط للإعمار كان قد أزعج قوى الاستكبار العالمي وأقلقها؛ لأنها لا تريد لا لمصر ولا لبلد من بلدان العالم العربي والإسلامي أن ينهض هذه النهضة التي يعتمد فيها على فكرته الإسلامية وعلى رصيده الطبيعي: الإنسان والتراب والوقت، فتآمرت مع قوى داخلة مصر على اغتيال الإمام وعلى إجهاض مشروعه الحضاري80 لأنها تعلم أن الفكرة الإسلامية إذا استعادت إشعاعها الروحي وفاعليتها الاجتماعية في بلد مثل مصر أو في بلد مثل الجزائر فإنها تستعيد ذلك بمرور الوقت في كافة بلدان العالم العربي والإسلامي81، مقدّرة ذلك بما استطاع المرشد الروحي لحركة الإخوان أن يحدثه في ظرف وجيز من تركيب أصيل لعناصر الحضارة، بالوعي الذي بثّه في فئات المجتمع المصري، خاصة فئة الشباب التي جعلها تدرك أنّ الطريق إلى الحضارة يبدأ من مرحلة التطهير النفسي ومن الانتصار على العجز والكسل ومن القيام بالواجب، فإذا تركت المرشد وحركته فإنّ هذا الوعي سيمتد من مصر إلى بقية البلدان العربية والإسلامية وبالتالي فإنّها ستفقد قدرتها على الرقابة، ثم سيطرتها المعنوية والمادية على شعوب هذه البلدان.82

ذلك أن ثقافة حركة الإخوان لم تكن ثقافة تنظيرية فحسب، بل كانت عملية أيضا، فالإمام لم يكتف حين الحديث عن مشكلات الإنسان المسلم الحضارية بما ورد عنها في القرآن والسنة وإنّما كان يجعل مما ورد في هذه المصدرين عن مشكلات الإنسان الروحية والمادية أو العقدية والخلقية أو السياسية والتشريعية، وسيلة لإلهام النفوس وإحياء القلوب وإيقاظ الهمم وتقوية العزائم وتحريك الجوارح وتوجيه الحركة إلى ميادين العمل وبذلك تألف من الجموع المسلمة الملتفة حوله، جهاز متنوع المواهب " ودار الجهاز الضخم ليحرك بدوره وجوه الحياة في البلاد، فينشئ المصارف لتوجيه رأس المال والصحافة القوية لتوجيه الثقافة والصناعة الناهضة لخلق العمل وتوجيهه، وجمع الجهاز الضخم أموالا طائلة استثمرت لتأسيس القاعدتين الضروريتين لحياة الفرد: قاعدة الروح وقاعدة المادة "83.

فإذا كان هذا المنهج الذي اتبعه المرشد لحركة الإخوان في النهضة التي أجهضتها قوى الاستكبار العالمي، وعين المنهج الذي سلكه بوحي من الله في التّغيير والتجديد، عالم الاجتماع محمد صلّى الله عليه وسلّم؛ إذ ظلّ طيلة العهدين: المكّي والمدني يوصي أصحابه بالتحلّي بالفضائل الخلقية، لا باعتبارها الإجراءات الإحترازية أو الدفاعية لحماية شبكة العلاقات الإجتماعية من التخريب أو التمزيق أو الشلل، وإنّما باعتبارها قوة جوهرية في تكوين الحضارات84؛ فإنّه لذلك كان واضحا منذ ستّة عقود، وهو الأمر الذي كان مالك بن نبي يدعو إليه في ندواته ومجالسه الفكرية وفي كتبه، أنّ إنشاء القاعدة المادية الضرورية لحياة الفرد في المجتمعات التي تحرّرت من الاستعمار، لا يمكن أن يتمّ بالكيفية التي تمكّنها من القضاء على كلّ أشكال التبعية لقوى الإستكبار العالمي ما لم تول الدول المستقلة تلك الروح المعنوية - التي كهربت إرادة شعوبها أثناء مرحلة الاحتلال كثيرا من الرعاية والاهتمام -85؛ لأنها هي التي ستبقي لهذه الدول خاصة في الظروف الاستثنائية على ذلك التركيب الذي تجلّى أثناء مرحلة الاحتلال في عالم الأشخاص، وهي التي ستحفظ لها ذلك التواصل سواء فيما بينها أو فيما بين شعوبها الذي به تتكامل الأعمال وتتجانس الأفكار وتتساوق الجهود وتكتمل السيادة والاستقلال86.

كان ذلك واضحا منذ الاستقلال ولكن لأمر ما؛ فإنّ أغلب الدول العربية والإسلامية لم تول في برامجها التنموية مسألة الأخلاق والروح المعنوية كبير اهتمام، إذ ظلّت طيلة العقود المنصرمة من عمر الاستقلال، لا تهتمّ وهي تحاول باستمرار إنشاء القاعدة المادية سوى بالاعتبارات الفنيّة أو الاعتبارات الإقتصادية87. وكأن إنشاء هذه القاعدة ليس في حاجة إلى مسوّغات أو المبرّرات التي تجعل الإنسان في أيّ حقل من حقول الإنتاج الذهني أو اليدوي، يعمل بقوة وحرارة ويبذل أقصى ما يملك من طاقة88. هذه المسوغات التي لم تلتفت إليها البلدان العربية والإسلامية خاصة في برامجها التنموية ولم توليها ما تستحق من الاهتمام والتفكير، هي التي أعادت لألمانيا في عشر سنوات كل ما دمّره الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، كما أعادت إليها وحدتها بعد سقوط الشيوعية سنة 1988، وهي التي بوّأت اليابان المكانة الإقتصادية والسياسية التي تحتلّها اليوم في العالم، وهي التي أخرجت الصين الشعبية من حظيرة دول العالم الثالث وجعلتها أكبر منافس لأمريكا وأوروبا في الظرف الراهن.89

فإذا كانت ألمانيا قد نجحت في إعادة بناء كل منشآتها القاعدية، وإذا كانت اليابان وهي عبارة عن جزر بركانية وليس لها مساحة زراعية كافية قد اعتمدت فيما هي عليه الآن من قوى علمية واقتصادية وسياسية، على الإنسان الذي حوّل بيته إلى مخبر علمي ومصنع90، وإذا كانت الصين قد فضّلت لإنشاء القاعدة المادية الاستثمار الاجتماعي وذلك " من أجل بناء سدودها وطرقها [وسائر البنى القاعدية، فحوّلت]، المليارات من الأمتار المكعبة من التراب لا بالآلات الحافرة والناقلة. المفقودة في بلد ينشأ، ولكن بفضل سواعد أبنائها وعلى أكتافهم... تحذوهم الأسطورة المعبّرة عن طاقة الإنسان عندما تحرّكه

إرادة حضارية، فتذكّروا أو ذُكّروا أنّ جدّهم " يوكنج" حوّل الجبال"91، فإنّ هذا الذي حدث في هذه البلدان لا يعود إلى عوامل فنيّة واقتصادية وإنّما إلى عوامل إنسانية92: نفسية وفكرية، لأنّ هذه البلدان أدركت منذ البداية قيمة العامل الإنساني، سواء في إنشاء قاعدة البقاء أو في إنشاء قاعدة القوة، فعمدت إلى استنفاره وتوظيف طاقاته: طاقة القلب واليد والرجل والعقل والمال، وإلى التنسيق بين حركاته، فاندفع بقوة وحرارة إلى الورشة والمزرعة والمدرسة والمكتب والمصنع والمستشفى والثكنة والمتجر... وإلى كل مكان يصلح للاستخدام أو الاستغلال في معركة البناء الحضاري.93

ولذلك نستطيع أن نقول إنّ إفراط الدول خاصة المحورية في العالم العربي والإسلامي إذا استثنينا أندونيسيا وماليزيا اللتين انتبهتا إلى ذلك حين إعداد البرامج أو المشاريع التنموية، إذا استثنينا هاتين الدولين فإن جميع الدول العربية والإسلامية أفرطت في التركيز على العوامل الاقتصادية أو القيم الفنيّة وفرّطت في القيم الإنسانية خاصة الفكرة الجامعة لقواها والباعثة لإرادتها الحضارية والمكتلة لجهودها ووسائلها في عمل مشترك ذلك التفريط الذي حال بينها وبين أن تجعل من المشاريع التنموية ورشة للشعوب كي تبرهن في مرحلة ما بعد الاستقلال على إمكانية إحداث نهضة شاملة يتحقّق معها تدريجيا إنشاء القاعدتين: الروحية والمادية94.

وما ذلك على الشعوب العربية والإسلامية بعزيز، إذا أدرك قادة العالم الإسلامي أنّ مشكلات شعوبهم كانت ولا تزال –منذ أن أخذ مالك بن نبي يكتب عنها- نفسية وفكرية أو بالأحرى ثقافية.95 وليست اقتصادية96، ولذلك، فإذا كان الهدف الجوهري من التنمية هو تغيير النموذج الاجتماعي والمنظر الإنساني من المحيط إلى الخليج؛ فإنّ تغييرهما حتى ولو تمّ، فهذا مجرّد فرض إذا لم يتناول في الوقت ذاته العوامل النفسية والفكرية التي أوجدتهما من جذورها الثقافية97، سيبقى مجرّد طلاء خارجي سرعان ما يزول لأدنى سبب ويعود الأمر إلى ما كان عليه من قبل، وهذا ما أكّدته التجارب التنموية التي أجريت في العقود السابقة في كل البلدان العربية والإسلامية تقريبا، بل ما تؤكّده أحوال هذه البلدان في الظروف الراهنة، إذ لو كان ذلك التغيير الذي حاولت إحداثه بما وضعت من برامج تنموية في النموذج الاجتماعي وفي المنظر الإنساني قد أولى مشكلة الإنسان الثقافية اهتماما أسمى خاصة بما يبعث فيه الإرادة الحضارة، وبما يجعله على وعي بقيمته باعتباره العنصر الجوهري في البناء الحضاري، وعلى وعي بقيمة التراب والوقت98، إذ لو كان كذلك أو كان معركة للبناء والتشييد، معركة لتمكين معنى الاستقلال والسيادة من القلوب ومن النفوس ومن جيل لآخر لما استعصى على هذه البلدان طيلة العقود المنصرمة من الاستقلال توثيق صلة الإنسان المسلم بخالقه، تلك الصلة التي تعتبر في كل الظروف العامل الأساسي في تركيب عالم الأشخاص وفي تركيب عناصر الحضارة99، ولما كانت هذه البلدان في ظل هيمنة أمريكا على العالم، عرضة للمؤامرة أو المساومة أو الابتزاز.

وخلاصة القول إذا كانت كل الدول العربية والإسلامية أمام تحديات داخلية وخارجية صعبة فإنّ مواجهتها تقتضي منها أن تستجيب لدعوة الله والرسول صلّى الله عليه وسلّم وأن تستقيم عليها، وذلك بأن تعيد للفكرة الإسلامية فاعليتها في كل أنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إذ بذلك فحسب يتركب عالم الأشخاص بأن تأليفه وبالتالي تركيب عناصر الحضارة مشروط بطاعة الله ورسوله صلّى الله عليه وسلم إلى صلاح الأعمال وغفران الذنوب والفوز العظيم.

الهوامش:

1. [1]- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص68. وانظر وجهة العالم الإسلامي، موضوع: العوامل الداخلية، ص77 وما بعدها.
2. [1]- أنظر مالك بن نبي، المصدر السابق، ص 32، 33.
3. [1]- أنظر مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوع: انتقام الأفكار المخذولة، ص153-162.
4. [1]- مثل ابن خلدون، توينبي، ول ديورانت، اسوالد اشبنغلر، ماركس، لينين، فرويد.
5. [1]- أنظر محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى لعام2007م، مقدمة الكتاب، ص8،7.
6. [1]- انظر مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، موضوع: الظاهرة الدورية، ص 25-33.
7. [1]- أنظر مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوع: الحضارة والأفكار، ص 41-48.
8. [1]- أنظر مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 29، 30، 36.
9. [1]- أنظر المصحف الشريف سورة الأنعام، الآية 162.
10. [1]- أنظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 76.
11. [1]- مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص 77.
12. [1]- أنظر مالك بن نبي، المصدر السابق، موضوع: النوع والمجتمع، ص15-19.
13. [1]- أنظر مجلة الموافقات، العدد الثالث، جوان1994م، موضوع: إشكالية الحضارة عند مالك بن نبي، ص303.
14. [1]- أنظر مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 156، 157.
15. [1]- يرى مالك بن نبي أن فكرة الحركة "... في علم الاجتماع ..."، فهي إما أن تؤدي بالجماعة إلى شكل راقي من أشكال الحياة الاجتماعية، وإما تسوقها إلى وضع متخلف...ميلاد مجتمع، ص18.
16. [1]- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص30.
17. [1]- مالك بن نبي، المصدر السابق، ص 29، 30.
18. [1]- أنظر مالك بن نبي، فكرة الآفرسيوية... موضوع: العالم الإسلامي وفكره الأفرسيوية، ص 231-262.
19. [1]- أنظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، موضوع: فكرة التربية الاجتماعية، ص75-81.
20. [1]- أنظر عماد الدين خليل، مدخل إلى التاريخ الإسلامي، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى2005م، موضوع: الفتنة الكبرى، ص96-76. الأمويّون، ص76-76.
21. [1]- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص30-31.
22. [1]- أنظر مالك بن نبي، تأملات، موضوع: خواطر عن نهضتنا العربية، ص175-202.
23. [1]- أنظر مالك بن نبي، المصدر نفسه، موضوع: كيف نبني مجتمعنا أفضل، ص 153-173.

24. [1]- أنظر مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوي، موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي، ص75-93. وانظر المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد، ص59-64.
25. [1]- أنظر مالك بن نبي، المصدر السابق، موضوع: المعادلة البيولوجية والمعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة، ص90-96.
26. [1]- أنظر مالك بن نبي القضايا الكبرى موضوع: مشكلة الحضارة ص 31-63: "...لقد توصلت اليابان إلى الإنقاص من جميع مشاكل التخلف بفضل تنظيم معين للمجتمع على قواعد أخلاقية، يجعله يبلغ مستوى القدرة على مواجهة جميع أعبائه بواسطة وسائل تعد منقوصة...إذا قارناها ترقيميا بالوسائل التي تقع في حوزة بلدان أخرى نامية... فنحن نرى ضمن حالة ملموسة... أن مشكلة التجهيز مرتبطة بقضية الإنسان والأفكار وأنّ المحصول الاجتماعي للآلات مرتبط بفعّالية وسلوك الفرد الذي يستخدمها، ونحن هنا ندرك ضمن حدّ معيّن الصلة القائمة بين إرادة وقدرة مجتمع يبني ذاته على قاعدة حضارة وليس على قاعدة منتجاتها. وهذا ما يفسر لنا كيف أنّ اليابان قد نجحت، حيث لم يحقق العالم الإسلامي حتى هذا الحين نصرا حاسما على التخلف، لأن نشاطه قد طُبّق في عالم الأشياء والمنتجات، بدل أن يطبق ضمن النسق البشري ونسق الأفكار...، ص 53، 54.
27. [1]- أنظر مالك بن نبي، تأملات، ص 194-202.
28. [1]- أنظر أحميدة النيفر ومحمد الوقيدي، لماذا أخفقت النهضة العربية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، عام2002م موضوع: العوائق الفكرية للنهضة، ص24-28.
29. [1]- أنظر مالك بن نبي، بين الرشاد وبنية، موضوع: نشتري أم نصنع؟ ص189-196.
30. [1]- تحدث مالك بن نبي في كتابه تأملات عن مشكلة الإنسان تحت عنوان: " قيم إنسانية وقيم اقتصادية " مبيّنا أسبقية القيم الإنسانية كالعقل واليد الوقت وتركيز العمل على القيم الاقتصادية كالإطارات الفنية ووسائل الإنتاج وتركيز رؤوس الأموال، ومما جاء في هذا الحديث:" أن الإنتاج الميكانيكي والإطارات الفنية وفعالية رؤوس الأموال...[أو] جميع القيم الاقتصادية، ترتبط من حيث التأثير والفعالية بحالات خاصة تتصل بالعوامل الإنسانية، حتى إنّ الآلة الميكانيكية ذاتها يزيد أو ينقص إنتاجها حسب ما يعتري الوسط الإنساني، الذي تعمل فيه من حالات توثر أو فتور أو بعبارة أخرى حسب قيمة المسوّغات الموجودة وراء نشاطه"، ص56.
31. [1]- أنظر مالك بن نبي، بين الرشاد والبنية، ص 47، المقصود بالكفاءة الفنية في هذتا المقام التكوين الذي يقتصر فيه على تعليم الشخص ما يؤهّله لممارسته مهنة ما، لأنّ الكفاءة الفنيّة التي تنشئ الصلة بين الأشخاص وشبكة العلاقات الإجتماعية وتوثّقها لا تحقّقها مجرّد ثقافة مهنية، بل ثقافة جذرية تغيّر معالم الذات وشرائط الحياة.
32. [1]- أنظر مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، موضوع: نظرة علم الاجتماع في الاستقلال، ص 39-48. والمسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد، ص 59-64.
33. [1]- لقد لاحظ مالك بن نبي أن حركة النهضة في العالم العربي الإسلامي تسير ببطء كما أنها لم تكن تتجه نحو إنشاء حضارة أو أن روادها لم ينظموا جهودهم الإصلاحية نحو الحضارة. ومن البديهي أن تكون هنا له عوامل تعطيل نفسية أثرت ولا تزال تؤثر في سيرها وعوامل فكرية لا تزال تؤثر في اتجاهها تأثيرا سلبيا الأمر الذي جعل الإصلاحات المتتالية لا تصيب الأهداف التي توخّتها، انظر تأملات في 186 وما بعدها.
34. [1]- مالك بن نبي، شروط النهضة، موضوع: من التكديس إلى البناء، ص47 وما بعدها.
35. [1]- هذه المقولة التي هي بمثابة القاعدة في علم الاجتماع النفسي شرحها مالك بن نبي في كتابه تأملات، تحت عنوان: خواطر عن نهضتها العربية، انظر ص1911-169.
36. [1]- أنظر مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية... موضوع: العالم الإسلامي وفكرة الآفرآسيوية، ص231-262.
37. [1]- أنظر عبد المجيد عمر النجار، مشاريع الإشهاد الحضاري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى لعام 1999م، ص5-13.
38. [1]- أنظر مالك بن نب، شروط النهضة، ص65. ببلاد مجتمع، موضوع: فكرة التربية الاجتماعية، ص75-81.
39. [1]- أنظر مالك بن نبي، المصدر نفسه، موضوع: الدين والعلاقات الاجتماعية، ص54-58.
40. [1]- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص65.
41. [1]- أنظر حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني... المجلد الأول، دار الأندلس، لبنان، الطبعة الأولى 1967م، ص203-239.
42. [1]- أنظر عماد الدين خليل، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى لعام 2005م موضوع: تدمر الحضارة الإسلامية، ص149-188.
43. [1]- أنظر المرجع نفسه، موضوع: واقع الحضارة الإسلامية ومستقبلها، ص191-204.
44. [1]- أنظر مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، موضوع: تركيب آخر لمرآة الكن، ص 61-93.
45. [1]- أنظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 13-16. لقد تأكد لمالك بن نبي من دراسته لمشكلات الحضارة في العالم الإسلامي أنّ حلولها الجذرية لن تكون على يدي المهندس الإجتماعي وإنّما تكون على يد عالم الحياة الإجتماعي، أو بالأحرى، إذا ما كانت هناك نوايا صادقة في وضع مشروع نهضة إسلامية، فإنّ الأسبقية تكون لعالم الحياة الإجتماعي، لأنّ مشكلة الإنسان في العالم الإسلامي نفسية وفكرية بالدرجة الأولى، ثم تنظيمية بالدرجة الثانية. فهذا الإنسان كان ولا يزال يلاحظ تخلفه بالنسبة للإنسان الذي يعيش في بلد متقدّم، ولكنه بسبب عقدة تخلّفه يردّ المسافة التي تفصل بينه وبين الإنسان المتقدّم إلى نطاق الأشياء وليس إلى نطاق الأفكار، وبذلك يفقد مركب النقص لديه فاعليته الإجتماعية، إذ ينتهي من الوجهة النفسية إلى التشاؤم، كما ينتهي من الوجهة الإجتماعية إلى التكديس.
46. [1]- أنظر عبد المجيد عمر النجار، مشاريع الإشهاد الحضاري، ص 181 و182.0
47. [1]- أنظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص 194-198. وانظر عبد المجيد عمر النجار، عوامل الشهود الحضري، ص 66-70. وانظر مالك بن نبي، المسلم في عالم الإقتصاد، موضوع: حدود الإختيار الإسلامي بين المناهج الموجودة، ص 42-46.
48. [1]- أنظر مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص 45. وانظر وجهة العالم الإسلامي، ص 80 و81.
49. [1]- أنظر عماد الدين خليل، نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام ومستقبله، دار النفائس، الطبعة الأولى لعام 1999م، موضوع: الإنبعاث وصياغة المستقبل، ص 105 وما بعدها.
50. [1]- أنظر مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، موضوع: السياسة والأيديولوجية، ص 81-86.
51. [1]- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوعا: أصالة الأفكار وفعاليتها، ص 102-110. الأفكار وديناميكا المجتمع، ص 111-118.
52. [1]- أنظر علي عزّت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، موضوع: لامبالاة الجماهير المسلمة، ص 59-61.
53. [1]- أنظر عبد المجيد عمر النجار، عوامل الشهود الحضاري، ص 29-36، 86-89.
54. [1]- مثل إيران، أندونيسيا، ماليزيا، باكستان...، وإنّها تبدو كذلك، ولكنها في نظر الغرب ضعيفة، لأنّ قوة العالم الإسلامي في نظر الغرب في وحدته الروحية التي هي أساس تكامله الإقتصادي، وهي لذلك تسعى للحيلولة بين الدول الإسلامية وبين هذه الوحدة بكل الوسائل.

55. [1]- مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، موضوع: العالم الإسلامي وفكرة الأفروسيوية، ص 231-262.
56. [1]- أنظر مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 65 وما بعدها. وانظر الظاهرة القرآنية، ص 300. إذ جاء فيه "... ففي ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكّم في تطوّرها... [كما] يبدو وكأنّه مطبوع يف النظام الكوني قانونا خاصا بالفكر الذي يطوف في مدارات مختلفة...". وانظر فكرة الإفريقية الآسيوية، ص 260-262، الذي جاء فيه "... إن الضمير المسلم يبدو وكأنه يشعر بـ [المرض] في حالة نصف [نـوم] ثم انغمس فورا في النوم دون أن يدرس الأسباب والوسائل الفعالة لمكافحته، فالمريض المسلم يجرّ معه= =مرضه وهو... يشرع في [نهضة] دون أن يتحرّر منهجيا من العوامل التي فرضت انحطاطه خلال القرون الأخيرة وعلي فالمرض ليس في طريقه إلى أن يزول أو أن ينصر في السنوات القادمة [ما بعد 1956]، بل على العكس. فإذا بدا أنّ مداه بدأ يتناقص في حدود البيئة الإسلامية، فإنّه يتعاظم في النطاق العالمي... وإذا كان المسلم يرى... أنّه مطمئن إلى تطوّره القومي... فلن يكون مطمئنا... إذا ما نظر إلى نفسه بالنسبة للتطوّر الدولي... وعليه فمن الممكن أن تقوم فيه [أي العالم الإسلامي] (ثورة) عن طريق نفسه، أي من تخطيط يوفر للضمير الإسلامي ضمانات هو بحاجة إليها أو تأتي هذه الثورة من الخارج... والقيام بثورة في الاتجاه الإسلامي معناه تطبيق (فنيّة ثورية) مستوحاة من القرآن... وإذا كانت هذه الفنية صادقة في المشكلة الإجتماعية كلها فهي تستتبع التخطيط التالي: 1- ماذا يجب تغييره في النفس المسلمة... 2- ما هي الوسائل والمناهج؟... 3- ما هو الهدف الذي يهدف إليه تغيير كهذا؟... والعالم الإسلامي في مرحلة مخيفة من مراحل السديم المتخلّق... ومن الجائز أن تؤدي مرحلة التخلّق إلى نظام إسلامي أو إلى فوضى شاملة تغرق فيها جميع القيم التي جاء بها القرآن إلى العالم. ولكن القرآن دائما على أهبة الإستعداد لتكرار معجزته إنشاء الله ".
57. [1]- لكي يفهم المقصود من المعادلة الإجتماعية عند مالك بن نبي يستحسن أن يرجع القارئ إلى كتاب المسلم في عالم الإقتصاد، موضوع: صورة العلاقات الإقتصادية الراهنة في العالم، ص 15-34.
58. [1]- أنظر محمد متولي الشعراوي، السيرة النبوية، المكتبة التوفيقية، مصر، بدون، ص 432 و433. وحسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني...، المجلد الأول، موضوع: أثر الإسلام في العرب، ص 157-202.
59. [1]- أنظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا/الجزائر، الطبعة الرابعة لعام 1987م، موضوع: العصر القرآني، ص 121-142.
60. [1]- أنظر مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 65. وانظر علي عزّت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، موضوع: المشكلات الراهنة للنظام الإسلامي، ص 85-103.
61. [1]- أنظر علي عزت بيجو فيتش، الإعلان الإسلامي، تحقيق وترجمة: محمد يوسف عدس، دار الشروق، الطبعة الأولى لعام 1999م موضوع: المشكلات الراهنية للنظام الإسلامي، ص85- 100.
62. [1]- أنظر أحمد الشرباصي، الدين للحياة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الصادرة عام 1968م موضوع: الإسلام ثورة اجتماعية، ص123 - 128.
63. [1]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص56 و 57.
64. [1]- أنظر محمد الغزالي، كفاح دين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، موضوع : إضعاف الوازع الديني، ص121 وما بعدها. وانظر مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، منشورات دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى لعام 1980م، موضوع: وحدة وتوازن وانسجام، ص72-82.
65. [1]- أنظر عبد المجيد عمر النجار، عوامل الشهود الحضاري، موضوع : أهمية النفير الحضاري، ص191-195.
66. [1]- لقد تحدث عن هذه القضية علي عزت بيجو فيتش تحت عنوان: المشكلات الراهنة للنظام الإسلامي، وهل هي ثورة دينية أم سياسية، وبين أن نهضة العالم الإسلامي الفعلية هي ثورة دينية أولا ولكنها لا يمكن أن تكتمل إلا بثورة سياسية وهذا الترتيب والتكامل ينبع من طبيعة الإسلام ومبادئه وليس من واقع العالم الإسلامي الكئيب. إن هذا الواقع يحتم على الأمة الإسلامية أن تحيا فترة من التطهير الجوّاني والتسليم العلمي بمبادئ أخلاقية أساسية معينة حتى تعي الغاية الحقيقية من الحياة وتستعد للقيام بالواجبات التي يفرضها الوعي بالهدف... ص85.
67. [1]- أنظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، موضوع: الشروط الأولية للتربية الاجتماعية، ص102-115.
68. [1]- أنظر عمر العرباوي، الاعتصام بالإسلام، مطبعة اللغتين، الجزائر، الطبعة الأولى لعام 1982م، موضوع : ثورة الشعوب الإسلامية الحديثة على الاستعمار الغربي، ص68-83.
69. [1]- أنظر علي عزت بيجو فيتشن، الإعلان الإسلامي، موضوع : ليس الإسلام مجرد دين، ص65-67. وانظر عبد المجيد عمر النجار، مشاريع الاشهاد الحضاري، ص 181- 183 و 242-245.
70. [1]- هو منهج فعال، لأن الله هدى محمدا إلى اتباعه في دعوة الناس إلى توحيده وإلى التخلي عن الأقوال والأفعال التي تقطع أو تفسد صلة التواصل بينهم والتحلي بالطيّب من القول والصالح من العمل كي تتوثق علاقاتهم.
71. [1]- أنظر طه جابر العلواني، التعددية أصول ومراجعات بين الاستتباع والإبداع، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رقم 11 من سلسلة أبحاث علمية، الطبعة الأولى لعام 1996م، خاصة ما ورد فيه عن فكرة " التعددية " باعتبارها فكرة وثنية تمتد جذورها إلى الفلسفة الإغريقية وعن فكرة " التنوعية " باعتبارها فكرة توحيدية تعود أصولها إلى أصل الإنسان الذي خلقه الله من ذكر وأنثى وجعل منه الشعوب والقبائل لتتعارف وتتعاون على إعمار الأرض بما سُخِر لها.
72. [1]- أنظر حسن أحمد الرقي، ملامح المشروع الإسلامي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى لعام 2005، ص 147-175.
73. [1]- أنظر مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 155-161.
74. [1]- المصدر نفسه، ص 158.
75. [1]- أنظر مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 157
76. [1]- المصدر نفسه، ص 157.
77. [1]- المصدر نفسه، ص 158.
78. [1]- أنظر زكي مبارك، التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، موضوع: ذخائر منسية، ص 94 – 105.
79. [1]- أنظر مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 158.
80. [1]- المصدر نفسه، ص 158 و 159.
81. [1]- أنظر مالك بن نبي، المصدر السابق، ص 159
82. [1]- أنظر عبد المجيد عمر النجار، مشاريع الإشهاد الحضاري، ص 184 – 189.

83. [1]- أنظر مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، طبعة 1986، موضوع: حياة الأفكار وقيمتها الرياضية، ص 117-126. حيث ورد في ملخص الكتاب إنّ " الأفكار ليست منفصلة عن عالم الأشخاص على طريقة ' مثل أفلاطون '، بل إنّ ملحمتها تجري كلّها على الأرض حتى لا يمكننا مهما تحرّينا من التجريد أن نفصل مغامرة ' فكرة ' عن مغامرة صاحبها فصلا تاما، ولو لخّصنا هذه الاعتبارات في جملة لقلنا : إنّ الاستعمار يسعى أولا؛ أن يجعل من الفرد خائنا للمجتمع الذي يعيش فيه، فإن لم يستطع فإنه يحاول أن يحقّق خيانة المجتمع لهذا الفرد على يد بعض الأشرار...".

84. [1]- المصدر نفسه، ص 69، إذ جاء فيه إنّ الاستعمار " يبدي قلقه لو أن أحدا انفلت من تأثير سحره وحاول أن يقول إنّ المشكلة ليست في الدفاع عن الإسلام... ولكن في تعليم المسلمين كيفية الدفاع عن أنفسهم بما في الإسلام من وسائل= =الدفاع. فالاستعمار يغضب حينما يتوقع بأن المشكلة سوف توضع هكذا. إذ بذلك سوف يفلت من يده زمام الأمور... إنّ كل ما يحدث اضطرابا في خطة الاستعمار المطبقة أو يحدث أثرا يناقض السلوك الشرطي التي أصبحت أفكارنا وأفعالنا خاضعة له بمقتضى تلك الخطة قد يصبح موضع كل اهتمام من طرف الاستعمار ".

85. [1]- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 159 و 160.

86. [1]- أنظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، موضوع: دفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية، ص 94 – 101. وانظر الظاهرة القرآنية، موضوع: التنجيم، ص 179 – 181. وانظر وجهة العالم الإسلامي، ص 30.

87. [1]- أنظر على سبيل المثال: القضايا الكبرى، ص 177، المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد، ص 61-73. لأن " القضية... بالنسبة للعالم الإنساني ليست قضية إمكان مالي، ولكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية، أي الإنسان والتراب والوقت في مشروع. تحركها إرادة حضارية لا تحجم أمام الصعوبات... ".

88. [1]- أنظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، موضوع: الثروة الاجتماعية، ص 37-41.

89. [1]- أنظر مالك بن نبي، تأملات، موضوع: قيم إنسانية وقيم اقتصادية، ص 49-62.

90. [1]- المصدر نفسه، موضوع: المسوّغات في المجتمع، ص 33-48. وانظر القضايا الكبرى، ص 91-129. وانظر رابح لونيسي، البديل الحضاري، دار المعرفة، طبعة 1997، موضوع: من مسلم ما بعد الحضارة إلى مسلم فعّال، ص 152-163.

91. [1]- أنظر مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: المعادلة البيولوجية والمعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة، ص 90-96.

92. [1]- أنظر مالك بن نبي، تأملات، موضوع: خواطر عن نهضتنا، ص 175-202. وانظر القضايا الكبرى، موضوع: مشكلة الحضارة، ص 52-54.

93. [1]- مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد،ص 73.

94. [1]- أنظر مالك بن نبي، تأملات، ص 56 و57.

95. [1]- أنظر مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، موضوع: شروط الإقلاع الاقتصادي، ص 169-175، العمل والاستثمار، ص 176-181. اقتصاد القوت والتنمية، ص 182-188. نشتري أم نصنع، ص 189-196.

96. [1]- لقد درس مالك بن نبي الحضارة الغربية وتبيّن له من خلال واقع الإنسان الغربي خاصة خارج أوروبا أنّه سواء كان من العالم الرأسمالي أو من العالم الإشتراكي لم يكن يسعى إلى نشر ثقافة حضارة وإنّما كان بسبب ثقافة الإمبراطورية يسعى إلى فرض نوع من القيصرية الطاغية، وإذا كان هذا الإنسان بما وصل إليه من تقدّم علمي قد عقد بينه وبين الإنسان في الجنوب صلة مادية فإنّ الذي كان ولا يزال يفصل بينه وبين الإنسانية المستضعفة هو هذه الثقافة... أنظر وجهة العالم الإسلامي، موضوع: بواكر العالم الإسلامي، ص 163-178. وانظر حسن صعب، الإسلام وتحديات العصر، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، موضوع: الإسلام إنسانية روحية متجدّدة، ص 133-207.

97. [1]- أنظر فكرة الإفريقية الآسيوية، ص 245.

98. [1]- أنظر مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الاستثمار المالي والاستثمار الاجتماعي، ص 75-80. إن " العالم الإسلامي ليس بيده أن يغيّر أوضاعه الاقتصادية إلا بقدر ما يطبّق خطّة تنمية تفتّق أبعاده النفسية وتخلّصه من تركة عصر ما بعد الموحّدين، من خرافاتها وعقدها ومسلّماتها الوهمية. يجب أن تتضمن النهضة الاقتصادية هذا الجانب التربوي الذي يجعل من الإنسان القيمة الاقتصادية الأولى، كوسيلة تتحقق بها خطة التنمية، وكنقطة تلاقي، تلتقي عندها كل الخطوط الرئيسية في البرامج المعروضة للإنجاز ".

99. [1]- أنظر مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية...، موضوع: نظرات في الثقافة الأفروسيوية، ص 143 وما بعدها، إذا كان الهدف من المشاريع التنموية هو " أن نغيّر بصورة عملية الواقع الذي يتمثل في النموذج الإجتماعي الأفروسيوبي وفي المنظر الإجتماعي من طانجا إلى جكارتا، [ فإنه ينبغي أن ننتبه إلى أنّ] كل واقع اجتماعي [ما هو] في جذوره [سوى] قيمة ثقافية معيّنة محققة في واقع الإنسان وفي الإطار أو المنظر الإنساني الذي يحوطه... وإذن، وأيّ تفكير في مشكلة الحضارة هو أساس تفكير في مشكلة الثقافة ".

100. [1]- أنظر مالك بن نبي، شروط النهضة، موضوع: العدة الدائمة، ص 67.

101. [1]- أنظر مالك بن نبي، من أجل التغيير، موضوع: في البناء الثقافي، ص 49-58.